

انكسابات الفينيقيّة المعروفة في زماننا والمرجح لها ليست قهط من القرن السادس بل تتّصل بالسابع وسأعود الى وصف هذه الكتابة في مقالة انشرها في غير هذه المجلّة .
ونفأ اردت الآن ان اتمف بهذه العجالة قرأء المشرق والسلام

المختار في كشف الاسرار

نظر للاب لوبس شيخو اليسوعي (تابع لـ سبق)

ومن النصول اللطيفة التي خصّها الجوربي باماطة القناع عن خدع الدّنين ومكر الشعوذين فصله الرابع في نسخنا (ص ٣٠-١٠) وهو السادس في غير نسخ وقد قسمه ثمانية ابواب يُن فيها اسرار بني ساسان وحيلهم القريية وبنو ساسان جيل من البشر يتشغلون في البلاد ورتزقون باصناف العش وهم الذين يدعوهم اهل بلادنا بالثّود كما اثبت حضرة الاب انتاس الكرملي في مقالته المعنونة «إطلاع الحضرة على أطلاع النّور» (اطلب المشرق ٥: ١٦٧-١٧٠ و٦: ٢٨٨) . وقد افصح المؤلف كلامه فيهم بقوله:

اعلم ان هذه الطائفة يدخل فيها جميع الطوائف ويطلق بما اكثر الخلق وذلك انها صناعة واسعة الدائرة تشمل امورا شتى واهلها اصحاب دعاء ومكر وبمال وجسارة على كل ما يفعلون ولم الف باب من ابواب المكر . . . فنه اصحاب النوايس والفقرء والمدروزين واصحاب البلاء (يريد المدّعين بالبرص) والزطّ واصحاب الوحوش مثل الدبّ والقرد والذين يلعبون بالتيوس والحسير ويؤثفون بين النطّ وانهار ويملون اللحن النساء والذين يدعون انهم كانوا مسورين والذين يدعون الحرس والمام وكمن مرضى ويظهرون الاستسقاء والتروح والمراحات ولم اشغال كثيرة مثل ذلك . . .

أما انتسابهم الى ساسان فهو شيخ محتال كان يخدع الناس بالكدية . قيل ان هذا الشيخ كان يقول « الحلياة على الناس ولا الحاجة اليهم » وزعموا انه كان اتخذ له عصا لاسفاره كتب عليها « من جسر ايسر ومن هاب خاب »
ثم اتسع الجوربي بوصف تمايلهم وذكر من ذلك امثالا بديعة زوي منها شيئا . فانه بدأ بذكر الذين يتسامرون فقال « انهم اذا ارادوا ذلك اخذوا من دم القراد جزءا

ومن الصنع العربي جزءاً ثم يكتحلون به على اطراف جفونهم فتنتطبق وتلتصق فلا يشك من يراهم انهم عيان. فاذا ارادوا فتح عيونهم ياخذون الصابون ويحترقونه ويلقونه في الماء مع شي من القلى ويلقونه حتى يذهب منه الربع فيترلونه من عن النار ويفسلون به عيونهم فتنتفتح

ثم تحطى المؤلف الى ذكر من يدعى بالجذام ويتظاهر بالاستسقاء . اما الجذام فيلوح عليهم اذا استحموا بتقبع يغلونه على النار فيه اجزاء متساوية من ورق المظلم والكبابة والقاتند . واما الاستسقاء . الوهرم فبان يغلوا نقيماً من ماء التين الاخضر ومن بيض النمل فيشربونه فتكبر بطونهم ووجوههم حتى يجيل لمن يراهم ان استسقاء . ثم يعالجونه بماء الهندباء . وسكر الطبرزد فيزول
ومن ظريف القصة التي اخبر بها المؤلف قصتان جرتا له مع هؤلاء الجبشا .
زويها هنا تفكها للخواطر

القرود المسحور

(قال الجوزي) رأيت بخراسان (وروى بخران) سنة ٦١٣ هـ (١٢١٧ م) رجلاً من بني ساسان اخذ قروداً وعلبه السلام على الناس والتسبيح والسرارك والبكاء . ثم رأيت من هذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه احد من الناس . فاذا كان يوم الجمعة جاء عبد هندي لطيف اللبوس حسن الثمانل الى الجامع ومعه سبادة حسنة فينرشها عند الحراب فاذا كانت الساعة الرابعة جاء القرد بلبوس عظيم من ملابس الملوك وفي وسطه حياصة ذهب مرصعة بانواع الجواهر وقد طيئه بانواع الطيب وأركبه بنقمة بقماس فاخر وركابات محللة بالذهب ثم يمشي في خدمته ثلاثة عبيد هنود بانخر ما يكون من اللبوس الواحد يحمل وطاهه والثاني تاسرته (وروى سره رزته) والثالث يمشي قدأمة كالحاجب له . وهذا القرد لا يرى على احد الا تسلم عليه طول الطريق

فاذا وصل الى باب الجامع نزل فيقدمون له التاسومة (السرموزة) فيلبسها ثم يعضده العبد الى ان يصل الى الموضع الذي فيه السبادة وهو مطرق بالهبة والكرون وكل من سأل عنه يقال له : هذا ابن ملك الفلاني من اكبر ملوك الهند وهو مسجود . ثم ينرش له العبد الرطاه . فوق السبادة ويحط له مسبحة وسواكاً فيعلم القرد يده

منديلاً من وسطه من الحياصة ويضمه قدامة . ثم يتناول المسواك فيستاك به ويصلي
ركتين تحية المسجد ثم يأخذ المسبحة ويستبح

فاذا فعل ذلك قام العبد الكبير وسلم على الناس وقال : يا اصحابنا من اصبح معافى
فليشكر الله على ما انعم عليه واعلموا ان بني آدم هدف للبلايا فمن ابتلي فليصبر ومن
عوفي فليشكر واعلموا ان هذا القرد الذي ترونه يتنكم لم يكن والله في زمانه احسن منه
شباباً وهو ابن الملك الفلاني صاحب الجزيرة الفلانية فبجان من سلب منه الحسن والملك
ومع ذلك فانه لم ير في الناس ارحم منه قلباً ولا اروع منه وانما هذه الدنيا كثيرة
الحزن . فكان من القضاة المذكور ان اباه زوجته بائنة الملك الفلاني فاقامت معه كذا
وكذا سنة ثم نقلوا اليها انه عشق غيرها فهربت الى بيت اهلها ولما حصلت عند امها
سحرتة امها فصار قرداً كما ترون . فلما علم والده بذلك امر السحرة والاطباء والحكماء
ان يردوه الى صورته فجزوا عن ذلك قامر باخراجه من الاقليم لما خلقه من العار بين
الملوك وقد سألنا زوجته فيه غير مرة ان تعيده الى حاله الاولى فامتعت وقالت انها
تركت عنده اثاثاً قيمته مائة الف دينار وحلفت لا تردّه الى صورته الا بها وقد درنا به
البلايا وتعصبت له الملوك والتجار فجبنا له تسعين الف دينار وبقي عشرة الاف دينار
فن يساعده بشي من ذلك ويعينه على ما قضي عليه ويرحم هذا الذي عدم شبايه وملكته
واهله ووطنه ؟ فاذا سمع القرد ذلك وضع التديل على وجهه وبكى امر بكاء بدموع
كاطار فتوق له القلوب وما من الحاضرين الا ومن يردفه بشي فاجخرج من الجامع الا
بشي كثير وهم يدورون به البلاد على هذه الصفة فاعلم ذلك

المكدي المحتال

(قال الجوري) ومن ذلك اني كنت في قونية من بلاد الروم سنة ٦١٦ (١٢٢٠ م)
فمرت في بعض الشوارع فرأيت انساناً عليه ثياب خلقه وهو ماقى على جنبه ورأسه
معصب بخزقة وهو بين اثنين الضعيف ويقول : من يقضي شهوتي برمانة . فلما نظرت
اليه قلت : وعزة الله من بني ساسان ولا بد ما أبصر ماذا ينتهي اليه امره . فجلست
قريباً منه بحيث اراه ولا يراني . فصارت الدراهم تتساقط عليه مع القطع والفلوس
والخبز وغيره . فلم يزل كذلك الى وقت الثالثة حتى حفت الناس عنه الرائح والجاني .

فلما رأى ذلك التفت يمينا وشمالا فلم يرَ احداً فوثب مثل البعير النشط اذا فلك من عقابه وجعل يخرق الازقة والشوارع وانا خلفه الى ان انتهى الى زقاق غير نافذ امام باب دار حسنة البنيان بمساطب وفانوس معلق . فرقي العتبة وطرقت الباب ففتحت له . وهم بالعبور فادركته وقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام من تكون ؟ فقلت : ضيف . فقال : مرحبا بالضيف ثم اخذ بيدي وقال : خير مقدم ادخل . فدخلت قاعة واسعة فيها من البسط والفرش والماند والاحف ما لا يوجد الا عند الاكابر من ابناء الدنيا فقال لي : اصعد . فصعدت على طرأحة حسنة . واما صاحبي فانه ربي من رقبته مزوداً فيه . مقدار عشرة ارطال خبز وقيهِ دراهم وثلوس شي كثير . ثم شد وسطه ببطونة تساوي دينارين وخالع ذلك الخلق فقدمت له الجارية ماء سخينا وطشنا ابتغسل ثم لبس بدلة قماش فاخرة وشم ماء ورد ممسكا وتطيب فرأيت له شعرا طويلا وطلع جلس الى جانبي وقال لي : والله هذا نهار مبارك برويتك . قلت : بارك الله فيك واعدك على ما انت بصدده . ثم قال : يا حرير (وهو اسم جاريتي) هاتي ما عندك برسم ضيفنا . فما ادري الا والجارية قد احضرت مائدة عليها اربع زبادي صيني في كل واحدة لون فاخر طعام خاص وخبز خاص . وبقل من جميع البقول . ثم احضرت سكر دانا عليه حريف ومالح وحامض فصار يأكل ريلقسي ويوانسي بالحديث وانا اعمل باليدين الى ان اكتفينا وغسلنا ايدينا فقال لي : اليك المذرة جنتنا على غير رعد لكن الكرم يسامح . ثم تحدثنا ساعة ونادي : يا حرير هاتي لنا ما نتجلى به فاحضرت انواعاً من الحارث لم تحصل الا عند الاغنياء . اكبار فأكلنا . منها حسب الكفاية

هذا وانا في غاية التمجيب ثم قلت له : لو فتحت لك دكان بزركان (ويروي : بزركان) لكان خيراً لك من هذه الحرفة التي اتمانيها . فتبسم ثم قال لي : كم يكون مكسب التاجر كل يوم لو كان رأس ماله خمسة الاف دينار . قلت : لهله يكسب نصف دينار . فقال : انا يقع لي كل يوم خمسة عشر درهماً وأكثر واقل فائدة بغير رأس مال فاذا اصنع بالدكان . مع ان التاجر لا يجاز من الخسارة في بعض الاوقات وعليه كلف لما انا فربح بلا خسارة . فقلت له : ماذا تصنع بالخبز الذي يصل لك كل يوم . قال : نبيته ونمعله فتبتاً فتجني تجار انطاكية يشترونه لسفر الراكب في البحر المالح فيحصل لنا منه كل سنة مائة اهل البيت وكرتهم . فتعجبت من ذلك

ثم قال لي بعد ذلك: وما تقول في الحر أتعلم شيئاً منها . قلت: ارضى بها وبكل ما ينتهي اليها . فنأدى الجارية باحضار المدام فأحضرت سفرته وآتيته وأحضرت شراباً عتيقاً لم اشرب . نه الأعداء الاكابر والروساء . فشربنا ثم قال: يا حريو خلي اختك تنزل فتطيب عيشنا . فزلت جارية من احسن ما يكون من الجوارى ومعهما عود فلعبت به ساعة ثم التفت واخذت الجنيك فضربت عليه ساعة ولم ترل تبدل اللاهي حتى اتصف الليل . فلما اردنا النوم قال: واليك يا فلانة افروشي لسيدك في المخدم الغلاني واولدي له قنديلاً . ثم اتتني بطشت ومنشفة فاغتسلت ثم نمت ولم ازل نائماً الى بكرة النهار . فالتبته فاذا به قد دخل علي وقال لي: يا سيدي الضيافة ثلاثة ايام فلا تخرج من مكانك حتى اعود اليك ثم قال للجارية: هاتي العدة فاتته بذلك الخلق . والزود والعصابة فحصب رأسه وخبأ شعره ولبس ذلك الخلق . ثم اتته بمخللة فيها تراب فجعل ينفذ عليه حتى غبر وجهه وثيابه ثم انه ودعني وخرج

ولم ترل الجارية تتعقدني بالشراب الطيب والطيبات من المآكل الى وقت الظهر فاذا به قد جاء وفعل كما فعل بالامس فاقت عنده الى يوم الجمعة قتال الجارية: خذي سيدك الى الحمام وقولي لفلان البلان: سيدي يسأم عليك ويقول لك اخدم هذا الرجل . ثم قال لي: اريد منك ان لا تصلي اليوم الا عند المنبر فان لي في ذلك غرضاً ثم ترد بعد الصلاة الى هاهنا ثم ليس آتته وخرج

وقامت الجارية واخذت بساطاً اقصرانياً (كذا) وطاسات نحاس وكفننا ومنزراً ملطياً ومناشف رومية في نهاية الحسن مبعرة . طبقة وعبت آلة الحمام كما ينبغي وراحت بها الى الحمام . ثم عادت الي وقالت لي: بسم الله يا سيدي اسرع فانّ البلان في انتظارك . فمست الى الحمام وخلعت قماسي ودخلت والبلان قدأمني الى القصرة فخدمني احسن خدمة . ثم جاءني بالناشف فتشفت وخرج خلقي بالطاسة فصعدت وجلست وصب الماء على رجلي . ثم جاءتني الجارية بقدر شراب فشربته ورجعت الى الدار والجارية قدأمني . ثم جاءتني بمساقف فاكلت

فلما جاء وقت الصلاة قالت لي الجارية: بسم الله الى الجامع . ثم حملت معي سجادتي وخرجنا الى الجامع فبسطت سجادتي تحت المنبر كما قال لي صاحبي . وفي اثناء ذلك اذن المؤذن وخرج الخطيب وركي المنبر فلم اشعر الا وصاحبي قد اقبل يخرق

الصوف وهو بذلك الخلق ثم صعد الى الخطيب على المنبر واخرج من عنيه كيا من الحرير الاطلس العدني فقال للخطيب: يا سيدي انا رجل فقير ولي عانة وواهب لنا يومان ما اكلنا شيئاً وقد مضت الفقرة. فلما كان اليوم قالت لي العانة: اليوم يوم الجمعة قم الى الجامع لعل الله يفتح لك بشي فقد هلكنا من الجوع. فخرجت طالباً الجامع وانا في الشارع الفلاني وقد تصورت من الجوع اذ عثرت رجلي بهذا الكيس ولا أعلم ما فيه فسؤلت لي نفسي ان آخذه وارجع الى منزلي فقلت: يا نفس يا ملعونة تريدان ان تجربيني على اكل الحرام والله لا اؤتلك في ذلك ابداً ولو مت جوعاً وما عند الله خير وابقى. وقد حملته اليك فاقبل به ما ترى

ثم دفع الكيس للخطيب ففتحه واذا فيه حلي تساوي خمسمائة دينار. فتعجب الخطيب من امانته مع ما هو فيه من الفقر والحاجة ثم اشار الى الناس وقال: يا قوم هل يكون في الوجود مثل هذا في دينه وامانه وعنته مع فقره فكيف يكون لو كان غنياً غير محتاج فوائده مثل هذا لا يصلح ان يكون فقيراً بين ظهور المسلمين فالواجب على كل مسلم اعانة وبره فليسطح كل واحد منكم شيئاً واغثوا فقره كل على قدره. فصارت الدراهم والذهب تنهال عليه من كل جهة الى ان قدرت انه حصل له مائتا دينار. هذا وانا الرمة في نفسي واقول قد حصل له شي يساري الف دينار فباعه بهذا القدر

فلما اتقت الصلاة ونحن في السنة سمعت الضجة قد قامت في الجامع فنظرت واذا بامرأة عجوز وهي تصيح وتقول: يا مساكين والله ما املك قوتي في هذا اليوم وقد ذاع لي حلي حملته من ناس الى ناس فوقع مني. فبلغني انه وصل الى الخطيب وانا مستجيبة بالله تعالى وبه. فجعل الناس يقولون لها: طيب خاطرلك فقد رده الله اليك. ولم تزل تحترق الصوف حتى وصلت الى الخطيب فخرت منه شيئاً عليها. ثم افاقت فقالت: يا ولاءي العفو لا تؤاخذني وارحمني لله تعالى. فقال لها الخطيب: على ما الذي عدم منك فقالت: كيس صنته كذا وشرايته كذا وفيه كيت وكيت من الحلي وكذا قطعة بلخس واسرورة كذا وخواتم كذا. ولم تزل تمدد الاعيان التي ضمنه بحضور الملا وقدأم جماعة من العدرل وكلما ذكرت شيئاً اخرجته الخطيب الى ان وصفت جميع ما فيه وصح ما قالت فسلم اليها الكيس فاخذته وانصرفت والخلق يدعون لصاحبي ويتعجبون من دينه وامانه ثم اتي جئت الى الدار كما اوصاني فوجدته جالساً يزن ما تحصل له واذا به مقدار

ما قدرته في خاطري . فلما دخلت وجلست قال لي : هل رأيت ما فعلت اليوم . قالت : نعم وانا الومك على ذلك . قال : لم . قلت : لانه كان قد حصل لك شيء يساوي خمسمائة دينار فبدلكه بهذا القدر . فقال : هل تعرف الكيس والمرأة التي أخذته . قلت : اذا أبصرتها عرفتهما . فقال : ياسر خلي العجوز نجي بالكيس . قتلته والكيس في يدها . فقال : هذا الكيس وهذه العجوز حماقي والحلي لابنتها وانا الذي سيرتها بهذه الحيلة . فلما اقت طول النهار كم كان يحصل لي . فلما ان رعبت ذلك تعجبت منه كل العجب ثم انصرفت من عنده .

هذا بعض ما اخبر به الجوربي وقد اخذنا العجب منه انه رضي بضيافة احد هولا المدائين ولم يأنف من خبثه ولم يهتك امام الخذور ستره وكأنه لامة على ما اظهر من المرذة . فان اخبارا كهذه لا يجوز روايتها الا مع الاستئزاز من فاعليها وتقريعهم على سوء اعمالهم

ثم اردف الجوربي هاتين القصتين بتخص أخرى من جنهما كقصة احد اصحاب له اسم محمد بن غيبة الدمشقي الذي كان يدور في بلاد الروم فوجده الكاتب رسالة عن حاله وعمله . قال الجوربي (ص ٣٩) :

فاحضر لي صندوقا من الابنوس وعليه شيء كبير من الاشارة التي تكون على الكعبة وعليه ثوب اطلس مع قفل من ذهب سواقطة من الفضة وسابره ذهب وقد اخذ ثلثا على مائة نيل رسول الله صدم وشراكه من غوص فسمرو في ارض الصندوق بماء من ذهب وفضة وجبل فيه انواع الطيب وقد زعم ان هذا ثلث التي صنم وهو دائر في بلاد الروم وذلك الصندوق على رؤوس السيد وقد ادعى انه من بني شيبة وقد حصل من ذلك جملة من المال . . .

وذكر غيرهم وجددهم يدورون بصندوق آخو جاءوا فيه « قطعة من عباة زعموا انها كانت لاهل البيت » . وذكر آخرين في بلاد العجم كانوا يرون « قطعة من عباة الي بكر الصديق »
(له هبة)